الفلسفة النقدية بين التأسيس الابستيمولوجي والميتافيزيقي

أ. سمير بلكفيف*

***

المقدمة:

ترتبط الفلسفة النقدية في كثير من الجوانب بالفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط[1]"، وتقوم هذه الفلسفة على الأسئلة الثلاثة المشهورة: ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ ويمثل مشكلة المعرفة، وما الذي ينبغي أن أعمله؟ ويمثل المشكلة الأخلاقية، وما الذي أستطيع أن أمله؟ ويمثل المشكلة الدينية، فالمشكلة الأولى تخص العقل المحض[2]، وتدخل

* – استاذ بجامعة **جامعة عباس لغرور– خنشلة – الجزائر.**

([1])(1724-1804) فيلسوف ألماني ذو نزعة مثالية نقدية، بقول: "إن مثاليتي التي أطلق عليها اسم المثالية المتعالية (الترنسندنتالية)، وأفضل من ذلك اسم المثالية النقدية، كانت غايتها استبعاد المثاليتين الأخريين معا"، من أهم كتبه نقد العقل المحض (1781)، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبل يمكن أن تصير علما (1873)، نقد العقل العلمي (1788)، نقد ملكة الحكم (1790)، نقلا عن: إيمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة، نازلي إسماعيل حسين، ومحمد فتحي الشنيطي، دار موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص51.

([2])علينا أن نقر مبدئيا أن ترجمة موسى وهبة لكتاب كانط "نقد العقل المحض" ترتقي لأول مرة في الترجمة العربية للنصوص الكانطية عامة إلى طور القراءة العالمية أو المحترفة، والتي تنظر إلى بنية النص الكانطي وإمكانيات التعبير عنه في لغة أخرى في آن واحد، ولذلك فإن أهم ما يشدّ في هذه الترجمة هو الوعي الاصطلاحي والتأويل الأصيل الذي يصاحبها، وذلك ليس فقط علامة على استيفاء واسع لشرط الأمانة العلمية فحسب، بل هو بخاصة توكيد فلسفي صارم على أن ترجمة الفلاسفة هو حكم على المشتغلين بالفلسفة، وليس حرفة يمكن لأي عارف بلغة طبيعية أن يقدم عليها، وهو ليس بالسبيل الوحيد لتوفير الأمانة العلمية فحسب، بل لاستكشاف إشكاليات مطمورة يجدر بالمتفلسف بعامة أن يفتش عنها، وأن يسبر أغوارها، مثلما هو الحال مع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المشكلة الثانية نطاق اختصاص العقل العملي، بينما تكون المشكلة الثالثة من اختصاص العقلين معا، ونظرا لأن كانط يريد إصباغ الفلسفة النقدية بالصبغة العلمية، فقد رفض الشك الديكارتي كنقطة أولية لبنائه الفلسفي، ذلك أن ثمة علوما ثلاثة قائمة بذاتها، ولا مجال للشك فيها وهي العلم الرياضي، والعلم الطبيعي، وعلم المنطق[1].

إن كانط وبالأخص على مستوى نقد العقل المحض، يشتغل على المجال الابستيمولوجي (الرياضيات، الطبيعة، المنطق) لا من حيث الشك في موضوعية ويقين هذه العلوم، وإنما لإنتاج الخطاب الذي يكشف عن أسسها ويبّين صيرورة نشأتها، وتلك هي مهمة الابستيمولوجي، أو ما يسمى بحقيقة المعرفة، وما يلحقها من أسئلة، غير أن هذا التفسير الابستيمولوجي لا يعكس الغاية البعيدة للنقد الكانطي، لأنه يقف عند حدود منطوق النص الرافض للميتافيزيقا، فلا يشكل هذا الرفض إلا جانبا واحدا من المشروع النقدي ككل، لذلك فإن الدافع الأساسي لمشروع النقد يكمن في بحث إمكانية أن تصير الميتافيزيقا علما، والبحث في الميتافيزيقا باعتبارها مركز الثقل في الفلسفة النقدية، هو في حدّ ذاته محاولة لمعرفة الحقيقة، بين هذا وذاك تتوزع الفلسفة النقدية؛

إشكالية الهو (Problématique du soi) التي اكتشفها نيتشه وهيدغر لاحقا ويمضي فيها بول ريكور. نقلا عن فتحي المسكيني، ما معنى أن نترجم اليوم؟ أوفي الفيلسوف العربي المستحيل الوجود، ملاحظات حول ترجمة موسى وهبة لكتاب كانط "نقد العقل المحض"، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، كانط والحداثة، العدد 38-39، 2004-2005، ص ص56-62.

([1])إيمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، المصدر السابق، مقدمة المترجم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أي بين حقيقة المعرفة ومعرفة الحقيقة يتأسس النص الكانطي، فالفلسفة النقدية تبحث عن التأسيس (المشروعية) الميتافيزيقي انطلاقا من التأسيس الابستيمولوجي.

يستلزم حل مشكلة الميتافيزيقا إذن فحص شروط إمكانية العلم، وبالتالي فإن مشروع إعادة بناء القول الميتافيزيقي بالشكل الذي يضمن له مشروعية وجوده واستمراره يتطلب تحليلا عميقا لطبيعة اشتغال العقل في تحصيله للمعرفة، فهو تحليل ارتدادي يرتقي من الواقع الثابت والأكيد لوجود العلم إلى الشروط القبلية التي تجعله ممكننا[1]، بحيث نجد في الفلسفة النقدية انتقالا مضمرا غير مصرح به من المجال الابستيمولوجي إلى المجال الميتافيزيقي، وهو مبرّر عنوان موضوعنا: الفلسفة النقدية بين التأسيس الابستيمولوجي والتأسيس الميتافيزيقي، وهكذا يتجه كانط إلى تحليل ما يتم إنتاجه من قبل العقل البشري من معرفة نظرية (الميتافيزيقا)، ويأتي في السياق نفسه تحليله للعلم الرياضي والطبيعي تحليلا ترنسندنتاليا، بمعنى كشف وتسويغ مشروعية قيام هذا العلم، من أجل بناء القول الميتافيزيقي بناءً علميا.

إن تحليل كانط للمعرفة العلمية (الرياضيات) ومحاولة فهم حقيقتها، يبدأ من التحليل الترنسندنتالي للشروط القبلية التي تكفل للعلم الرياضي كل اليقين (الكلية والضرورة) من جهة، والخصوبة (التأليف، الإنشاء) من جهة

(1)محمد هشام، في النظرية الفلسفية للمعرفة، (أفلاطون، ديكارت، كانط)، أفريقا الشرق، المغرب،2001 ، ص109.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أخرى، الأمر الذي يجعل مشكلة الموضوع في جانبها الأول تتمثل في: كيف يكون العلم الرياضي (الهندسة، الحساب) في المنظور الكانطي علما قائما بذاته؟ أي ما هي الشروط والأسس التي كفلت لهذا العلم اليقين من جهة، والخصوبة من جهة أخرى؟ بتعبير آخر كيف تكون الأحكام التركيبية القبلية ممكنة في الرياضيات؟ أما بالنسبة لبحث كانط في الميتافيزيقا[1]، فإنه المبحث الوحيد -حسبه- الذي لم يحقق نتائج يقينية، فهل يرجع سبب هذا التأخر إلى طبيعة المواضيع التي تناقشها الميتافيزيقا؟ أم إلى خلل في بنية المناهج التي نوقشت من خلالها هذه المواضيع؟ ثم هل يؤدي الغموض الموجود في الاستنتاجات الميتافيزيقية إلى الاستغناء عنها بالرغم من أنها تلبي حاجة ملحة في الإنسان وهي حب التفلسف؟ وإذا شئنا أن ندمج كل من المشكلتين في إشكالية واحدة نقول:كيف تشتغل الفلسفة النقدية -وما تحمله من مشروع- على فهم حقيقة المعرفة العلمية لفهم ومعرفة حقيقة الميتافيزيقا، وبالتالي تحليل شروط إمكانها انطلاقا من الإمكان الابستيمولوجي؟

أولا: حقيقة المعرفة العلمية (الرياضيات):

تختلف المعرفة الرياضية - في نظر كانط- عن المعرفة الفلسفية، ففي هذه الأخيرة تكون المعرفة عقلية خالصة، أي بناءا على تحليل التصورات، في حين تستند المعرفة الرياضية إلى الحدْس القبلي(المكان، الزمان) مما يجعل مسألة قيام الأحكام التركيبية القبلية أمرا ممكنا، وبالتالي نتساءل

(1) إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة، موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1989، ص25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كيف تكون هذه الأحكام ممكنة في العلم الرياضي؟ والإمكان هنا معناه تفسير وتحليل هذه الأحكام[1]، وكانط لم يقصد أن يتساءل عن إمكان وجود هذا العلم، فهو يعلم أنه ممكن لأنه قائم فعلا، وإنما يقصد البحث في الشروط الضرورية التي حققت للقضية الرياضية الصدق واليقين، وكفلت للرياضيات التقدم[2].

ولما كان الحكم التركيبي القبلي يجتمع فيه كل من القبلي الأولي والتركيبي البعدي، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن أساس هذا الاجتماع، وبالتالي عرض نظرية كانط في المكان والزمان بحكم أنهما عيان قبلي يتموضع فيه القبلي والتركيبي معا، ولا يمكن أن يكون العقل وحده لأنه عبارة عن تصورات فارغة، وقوالب فكرية خالية من المعنى، ولا التجربة وحدها لأنها متغيرة وعرضية فهي لا تعكس اليقين والكلية والشمول، إذن لا يبقى سوى الحدس المحض (المكان والزمان) [3]، وهو ما يستوجب تحليل فكرتي المكان والزمان باعتبارهما أساس القبلي والتركيبي، ومثل

(1)Emmanuel Kant, premiers principes métaphysiques de la science de la nature. T.CH andler et E.D Chavannes, paris, Félix alcan, éditeur 1891. p4.

(2)محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، دار المعارف لدينا الطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2004، ص88.

(3)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذا التحليل يسميه كانط الاستطيقا[1] الترنسندنتالية، لذلك نجد كانط يبدأ بتحليله لفكرتي المكان والزمان حيث يتجاوز التصور الليبنتزي (مجرد علاقات) والتصور النيوتوني (المطلق)، حتى يضمن لهما الذات الإنسانية، ولكي يتسنى لنا تسويغ مشروعية قيام الرياضيات وبالتحديد تفسير الحكم التركيبي القبلي، وهذا هو مسوّغ تقديمنا لنظرية كانط في المكان والزمان قبل نظريته في الرياضيات، فتحليلنا لنظرية كانط في المكان والزمان يعكس مدى صلتهما بنظريته في الرياضيات، وبالتالي فالعيان القبلي (المكان والزمان) هو الذي يؤسس مشروعية قيام العلم الرياضي[2].

1- الحساسية الترنسندنتالية

إن المعرفة عند كانط مشروطة بعاملين أساسيين هما: الحدس "Anchauung" والفهم "Verstand"؛ أي الحس والفكر، فالحس دون مفاهيم فوضى، والمفاهيم دون حدوس جوفاء، والخطوة الأولى هي تمييز المفاهيم عن الحدوس بغرض التحليل والوقوف عند الحساسية في جانبها الترنسندنتالي؛ أي في جانبها القبلي وقد عزلت عن كل مقولات (kategorie) الفهم وأحكامه وتصوراته[3]، فنصبح بذلك إزاء معطيات حسية (sense data) غير خاضعة لأطر ومفاهيم قبلية، أما الخطوة

([1])لم يستخدم كانط هذا المصطلح بالمعنى المألوف (علم الجمال)، إنما استخدمه بالمعنى الذي يدل عليه اشتقاق الكلمة في اللغة اليونانية لتدل على نظرية القدرة الحسية، أو نظرية الإدراك الحسي، نقلا عن محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، المرجع السابق، ص 73.

([2])حمادي بن جاء بالله، العلم في الفلسفة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1999، ص189.

([3])عبد الوهاب جعفر، الفيلسوف كانط والكانطية الجديدة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000، ص32.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثانية فتتمثل في عزل تلك الحساسية عن الإحساس، فلا يبقى لنا سوى الحدس المحض الذي هو مجرد صورة للظاهرات، والعلم الذي يبحث في مبادئ الحساسية القبلية يسميه كانط "الاستطيقا الترنسندنتالية"، وهو الذي يسمح لنا بالوقوف عند الحدوس الخالصة أو الصور الخالصة للحدس[1]، فالمكان (ort) والزمان (zeit) هما صورتا الحساسية الخالصة والإحساس هو مادتهما العامة، ومعرفتنا لهما هي دائما قبلية (priorita) أولية متقدمة عن كل تجربة، في حين أن الإحساس عنصر نستمد منه معرفتنا البعدية (spatersein)[2].

يتبين لنا من خلال ما سبق أن المكان هو صورة الحس الخارجي الذي على أساسه تتراكم المعطيات الحسية، والزمان على أساسه تتعاقب الأحداث، فهما شرطان ضروريان لكل حدس حسي[3]، بالإضافة إلى أنهما ذاتيان، وهذا ما يجب إثباته، ومثل هذا الإثبات يسميه كانط في كتاب "نقد العقل المحض"، وبالتحديد في قسم "الإستيطيقا الترنسندنتالية" "العرض" ويقسمه إلى قسمين: العرض الميتافيزيقي والعرض الترنسندنتالي، حيث يقول: "إني أعني بكلمة عرض التمثل الواضح ولو على نحو غير مفصل لما تشتمل عليه الفكرة، فالعرض

([1])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص60.

([2])Georges pascal, Kant, Sélection philosophique (S-P-B), paris, France, 1967, p 45.

([3])إميل برهييه، تاريخ الفلسفة، القرن الثامن عشر، ترجمة، جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، (ط3)، 2004، ص258.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الميتافيزيقي يبرز الأولية للمكان والزمان، بينما العرض الترنسندنتالي يبيّن لنا كيف يمكننا فهم معارف تأليفية (تركيبية) قبلية"؛ أي مبدأ قادر على تفسير إمكانية قيام أحكام تركيبية قبلية، وبالتالي تبرير مشروعية العلم الرياضي"[1].

نفهم من هذا القول أننا أمام مسألتين، الأولى هي البرهنة على أن المكان والزمان عناصر أولية قبلية في الحساسية؛ أي غير مستمدين من التجربة بالإضافة إلى أنهما حدسان خالصان، وهذا ما يسمى بالعرض الميتافيزيقي، في حين أن المسألة الثانية تتناول المكان والزمان من حيث أنهما أساس قيام الأحكام التركيبية القبلية، وبالتالي تبرير مشروعية هذه الأحكام، وهذا ما يسمى بالعرض الترنسندنتالي.

2- العرض الميتافيزيقي

يشمل هذا العرض أربعة براهين، حيث يثبت كانط في البرهانين الأوليين أن المكان والزمان قبليان، لأنهما غير تجريبيان مشتقان من التجربة، وفي البرهانين الثالث والرابع يثبت طابعهما الحدسي؛ أي حدسان خالصان[2].

أ- قبلية المكان والزمان- البرهان الأول: إن فكرة المكان والزمان ليست مفهوما مستمدا من التجربة، فالمكان لا يتقوّم بالتجربة والظواهر الخارجية، وإنما هذه التجارب لا تكون إلا بواسطة هذا المكان القبلي، والشيء نفسه يقال عن الزمان، فلا يمكن تمثل التتابع الذي تخضع له الأحداث إلا

(1)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص62.

(2)محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، المرجع السابق، ص82.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بتصور الزمان مسبقا[1]، والكيفيات الحسية لا تمدنا بالعلاقات المكانية (قريب، بعيد...الخ)، وإنما نحن نفترض هذه العلاقات لترتيب الأشياء، كذلك العلاقات الزمنية لا وجود لها خارج ذواتنا، بل نحن نضعها بغرض الترتيب (بعد، قبل...الخ)[2]، ومن ثم فإن المكان والزمان لا يمكن أن يستمدا من علاقات الظاهرات الخارجية، وهذا في الحقيقة نقد موجه إلى نظرية[3] لايبنتز في المكان والزمان، إلا أن هذا البرهان سلبي كونه يؤكد أن المكان والزمان ليسا مشتقين من التجربة والظواهر الخارجية، وهذا ما يجعلنا نبحث عن مصدرهما في البرهان الثاني.

- البرهان الثاني: مجمل هذا البرهان أن المكان والزمان شرطان أوليان وضروريان لظهور الأشياء في حسّنا، والدليل على ذلك أنه يستحيل علينا تصور أشياء ليست في مكان ولا في زمان، بالرغم من أنه يمكننا التفكير فيهما دون أن نقف عند مكان أو زمان محدد، وبتعبير آخر نستطيع قبل التجربة أن نتمثل المكان والزمان[4]، وهذا يعني قبلية المكان والزمان حيث يقول كانط:"المكان والزمان قبليان يشكلان إطارين قبليين لكل الحدوس الحسية، فنحن نستطيع أن نتصور أن هناك مكانا دون

([1])Georges pascal, la pensée de Kant, bordas, paris, France, 2 édition, 1957, p53.

([2])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص ص61-62.

([3])تسمى بالنظرية "العلائقية" التي تؤكد أن المكان مجرد علاقات تتضمن الجوار والقرب والبعد، أي أنه تركيب لتموضع الأجسام في شكل علاقات، نقلا عن: جلال صادق العظم، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، منشورات كلية العلوم والآداب، لبنان، 1966، ص41.

([4])عبد الوهاب جعفر، الفيلسوف كانط والكانطية الجديدة، المرجع السابق، ص 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

موضوعات، فهو يعد بمثابة شرط لإمكان الظاهرات"، والشيء نفسه يقال عن الزمان:" فهو يشكل أساسا لجميع الحدوس، فليس بوسعنا أن ننسخ الزمان بالنسبة إلى الظاهرات بعامة على الرغم أنه بالإمكان تجريد الزمان من الظاهرات، فالزمان معطى قبلي-أولي"[1]؛ أي لا يمكننا الحصول على الحدوس الحسية دون تلك العلاقات المكانية والزمنية، فقولنا: "الطاولة ذات لون وشكل معين يتضمن القول أنها في مكان وزمان ما، فليس من الضروري حين إدراكي للطاولة أن أدرك كل صفاتها الحسية، لكن من الضروري أن أدرك الإطار المكاني والزماني للطاولة، فالطاولة اللامكانية واللازمنية ليست موضوع إدراكي الحسي"[2].

يتبين لنا من التحليل السابق للبراهين أن المكان هو شرط تمثل الأشياء من حيث تموضعها، وأن الزمان شرط تمثل تتابع الأحداث، وبالتالي فهما سابقان على التجربة الخارجية ماداما شرطا لها، وهذا ما يجعلنا نسلم بأن المكان والزمان قبليان؛ أي قبل حدوث الظاهرات[3]، وإذا كان هذان البرهانين يثبتان أولية وقبلية المكان والزمان، فإنهما لم يجيبا عن طبيعتهما، وهذا ما نجد له إجابة في البرهانين الثالث والرابع حيث يبرهن كانط على أنهما حدسان خالصان.

ب- حدسية المكان والزمان- البرهان الثالث: إن المكان والزمان ليسا تصورين، لأن التصور ماهية عامة تشتمل على خصائص مشتركة بين

([1])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص ص61-64.

([2])محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، المرجع السابق، ص80.

([3])عبد الصمد الكباص، عبد العزيز بومسهولي، الزمان والفكر، دار الثقافة، المغرب، 2002، ص24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مجموعة أفراد، كذلك لأن التصور يستلزم وجود أسبقية للأشياء حتى نتمكن من تجريد تلك الخاصية المشتركة. ذلك أن: "المكان ليس مفهوما سياقيا، بمعنى ليس مفهوما عاما لعلاقة الأشياء بعامة، بل هو حدس محض، ذلك أنه لا يمكننا إلا أن نتصور مكانا واحدا، وعندما نتكلم عن عدة أمكنة فلا نفهم من ذلك إلا أجزاء من المكان الواحد"[1]؛ وهذا يعني أن المكان والزمان ليسا تصورين بل حدسين محضين، باعتبارهما يتضمنان أجزاء لكل منها خصائص المكان والزمان، حيث يسوق كانط المثال التالي ليؤكد حدسيتهما، فحين أنظر إلى المرآة، أجد أن عيني ويدي وأذني مشابهة للأصل في الكم والكيف، ومع ذلك لا أخطئ في وضع القفاز الأيمن في اليد اليسرى، والقفاز الأيسر في اليد اليمنى، والدليل على ذلك أن العقل لا يظهر هذه الاختلافات بتصوراته، إنما هي الحساسية وما يرجع إليها من حدوس محضة.

البرهان الرابع: لقد أكد كانط أن المكان والزمان حدسان خالصان لا تصوران، من حيث أن التصور يدل على خصيصة مشتركة بين مجموعة أفراد، تنطبق على أشياء جزئية لامتناهية، إلا أن المكان والزمان يحتوي هذه الأجزاء اللامتناهية، ومثال ذلك أنه يمكننا تصور امتداد خط مستقيم إلى ما لانهاية، وكذلك حركة في المكان إلى ما لانهاية، إلا أن تصور الخط أو الحركة لا يتضمن تصور اللانهاية[2]، والشيء نفسه يقال عن الزمان،

([1])إيمانويل كانط، المصدر نفسه، ص61.

([2])محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، ص85-86.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فنحن لا نستطيع الحديث عن علاقات زمانية مثل: قريب، بعيد ...الخ، إلا إذا افترضنا أسبقية منطقية للزمان عن علاقاته، وبالتالي فإن كل جزء من مكان أو جزء من زمان -يندرج تحت الإطار العام لفكرة المكان والزمان- يستوجب لا نهائيتهما[1]، وهكذا تظهر لانهائية المكان والزمان، من حيث أنهما إطاران عامان يضمان كل الأشياء، وفي هذا يقول كانط:"المكان ليس هو التصور لأن المكان يتصور بوصفه معطى لامتناهيا"، ذلك أن المكان يتضمن أجزاءه وتوجد معه في اللامتناهي، في حين أن التصور لا يمكن أن يوجد دون تصورات، وعليه فالتصور الأصلي للمكان هو حدس قبلي وليس تصورا، والشيء نفسه يقال عن الزمان[2].

نستنتج مما سبق، أن البراهين تطرح مسألة ميتافيزيقية هامة، تثبت فيها أن المكان والزمان هي أفكار قبلية أولية، وحدسية خالصة، تمثل الجانب القبلي والحدسي في الوقت نفسه للحساسية، وهذه الأخيرة مرتبطة بالذات الإنسانية، فيكون بذلك المكان والزمان مرتبطين بالذات، ويكون كانط قد أنسن المكان[3] والزمان بعدما كانا عند نيوتن في المستوى الميتافيزيقي أو في مرتبة المطلق، وبعد أن ضمن لهما المستوى

([1])محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي،مركز دارسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان، 2002، ص389.

([2])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص61.

([3])أي ربطهما بالإنسان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإنساني[1]، ينتقل كانط ليؤسس عليهما نظريته في الرياضيات، حيث أنهما بهذا التصور (قبليان،حدسان)، يضمنان لنا قيام أحكام تركيبية قبلية، وهذا ما يسمى
بالعرض الترنسندنتالي.

3- العرض الترنسندنتالي

المقصود بالعرض الترنسندنتالي -فيما يقول كانط-:"هو شرح مفهومي المكان والزمان بوصفهما مبدأين يمكناننا من فهم إمكان معارف تأليفية قبلية"[2]، ذلك أننا نجد المفاهيم الرياضية ليست مستمدة من العيان التجريبي بل من العيان المجرد بشكل قبلي، وهذا ما يجعل أحكامها التركيبية يقينية بصفة قبلية وضرورية ؛ أي تتميز بالكلية، هذا من جهة[3]، ومن جهة أخرى لكي تكون تركيبية (تأليفية) يجب أن تستند إلى الحدس الخالص (المكان والزمان)، ومثال ذلك أنه إن لم تكن هناك حدوس محضة لا يمكننا القول:" أنه لا يوجد غير مستقيم واحد بين نقطتين" أو "أن هناك ثلاثة أبعاد فقط" أو" أن المتوازيين لا يلتقيان"، والشيء نفسه يقال عن الزمان، كقولنا:" الزمان له بعد واحد والأزمنة المختلفة ليست معاصرة، وإنما متتابعة"[4]، فالمعارف الرياضية لا يمكن أن تقوم إلا بقدر

([1])Martine Meheut, penser le temps. ellipses, edition , marketing S.A , paris, 1996, p

([2])إيمانويل كانط: المصدر نفسه، ص 62

([3])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص 30.

([4])عبد الوهاب جعفر: الفيلسوف كانط والكانطية الجديدة، ص 67-68.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما يكون كل من المكان والزمان مقرّهما الذات، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على مدى ارتباط نظرية كانط في المكان والزمان بنظريته في الرياضيات، فالحقائق الهندسية -مثلا- حقائق ضرورية ويقينية، ولكي نبرّر هذا اليقين علينا إيجاد المكان القبلي لا التجريبي، لأن هذا الأخير لا يعطي اليقين، فلكي تكون الهندسة يقينية عليها أن تدرس المكان السابق على التجربة[1]. إن امتداد خط إلى غير نهاية، وإذا تتابعت سلسلة التغيرات إلى ما نهاية مثل الأماكن التي تخترقها الحركة، فذلك لا يكون إلا بافتراض تمثل المكان والزمان، وهو ملازم للعيان باعتبار أنه في ذاته لا يحده شيء"[2]، فالرياضيات تنبني على العيان القبلي المجرد (المكان والزمان)، ما يسمح بأن تكون قضاياها ضرورية ويقينية.

إن العرض الترنسندنتالي يبيّن أولية المكان والزمان، ويمتد ليفسر قبلية قضايا الرياضيات (الحساب، الهندسة)، غير أن هذا العرض يهدف بالدرجة الأولى إلى استخلاص نتيجة هامة هي: أن المكان والزمان ذاتيين، فكلمة ترنسندنتالي لا تعني فقط الشرط القبلي للمعرفة التركيبية، وإنما تعني كذلك ارتباط هذا الحدس بفكرنا[3]، فالمكان والزمان باعتبارهما حدسين خالصين هما ذاتيان لأن الذات هي التي تجعل من المعطيات الحسية المشتتة، والتي تأتي من العالم الخارجي خاضعة لأطر زمنية ومكانية. إن كل ما يظهر لحواسنا الظاهرة في المكان ولحسنا الباطن في الزمان ندركه

([1])إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص62.

([2])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص37.

([3])عبد الوهاب جعفر: الفيلسوف كانط والكانطية الجديدة، ص 68-69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما يظهر لنا لا كما هو في ذاته[1]، ومثل هذا التصور (ذاتية المكان والزمان) هو ما يبرّر قيام العلم الرياضي، فلا يمكن أن تكون الرياضيات ممكنة إلا بقدر انطباق موضوعات الحس التجريبي (المعطيات) على المكان والزمان القبليين، وهذا الزعم ضروري إذا أردنا التسليم بأن القضايا التركيبية القبلية ممكنة[2].

نستنتج من المقدمات السابقة، بأن نظرية كانط حول المكان والزمان، باعتبارهما عنصرين أوليين متقدمين عن كل تجربة بالإضافة إلى أنهما حدسان خالصان، هي الضامن الوحيد لليقين والكلية. إن المكان والزمان مصدران معرفيان يمكن أن نستمد منهما قبليا معارف تأليفية متنوعة، وأنهما يجعلان القضايا التركيبية القبلية ممكنة"[3]، وهذا الزعم كذلك ضروري إذا أردنا التسليم بأن القضايا التركيبية القبلية ممكنة بحكم أنها تؤسس لمشروعية قيام العلم الرياضي.

ثانيا- مشروعية قيام العلم الرياضي:

ينظر كانط إلى العلم الرياضي (الهندسة، الحساب)، باعتباره علما قائما بذاته أحرز تقدما ونجاحا كبيرين منذ اليونان، فهو يتميز عن بقية المعارف الأخرى، ذلك أن أحكامه تركيبية قبلية، إذ هي من جهة تضيف شيئا جديدا، وكلية (ضرورية) من جهة أخرى[4]، وهذا يعني أن هناك تأليفا

([1])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص38.

([2])المصدر نفسه، ص 35.

([3])إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص 68.

([4])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص 29.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بين العقل والتجربة في ميدان الرياضيات، حيث يسمح هذا التأليف ببناء مفاهيم رياضية، ومثل هذا التأليف هو ما يميز بين عمل الرياضي وعمل الفيلسوف، وهذا يعني ضرورة التمييز بين منهج الرياضيات ومنهج الفلسفة، هذا التمييز الذي يؤسس للعلم الرياضي ولكيفية بناء المفاهيم الرياضية وللمنهج الذي يتبعه، ما يسمح بتقدمه.

إن المعرفة الرياضية عند كانط ترتبط بنظريته في الأحكام، لأن المعرفة -حسبه- تظهر دائما في شكل حكم يعبر عن وجود علاقة بين الموضوع والمحمول، فالحكم هو الفعل العقلي الذي يحتمل الصدق أو الكذب، ولتحليل المسألة نستعرض مختلف الأحكام لنبيّن في الأخير نوع الحكم الذي تتضمنه القضايا الرياضية، وننظر في خاصيته وطريقة تأليفه[1].

أ- الحكم التحليلي (analyse): لا يشير محموله إلى معنى خارج تصور الموضوع كقولنا:"الجسم ممتد" فهو حكم تفسيري، فالمحمول متضمن في الموضوع، وهذا النوع من الأحكام يخضع لمبدأ عدم التناقض، وعليه يجب أن نسلم بأن مبدأ عدم التناقض يصبح كمبدأ كلي وكاف تماما لكل الأحكام التحليلية[2].

ب- الحكم التركيبي (synthétise): هو الذي يشير فيه المحمول إلى شيء جديد عن الموضوع، أي ليس متضمنا فيه، مثال: "الجسم ثقيل"

(1)يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، دار العلم، بيروت، لبنان، ص 218.

(2)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 123.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالثقل هنا ليس صفة ضرورية وملازمة للأشياء (الأجسام) فتصور نقيضه ليس محالا.

ج- الحكم القبلي"A priori": كل قضية قبلية تكون فكرتها مصحوبة بفكرة الضرورة، والتي ينظر إليها بوصفها كلية شمولية تماما، فمعرفة كلية كهذه يجب أن تكون يقينية بذاتها بمعزل عن التجربة والاختبار.

د- الحكم البعدي"A posteriori": يطلق على المعرفة المتولدة من التجربة أو المتعلقة بها"[1]، فهو حكم يحتاج إلى الخبرة الحسية لإثبات صدقة أو كذبة؛ أي أن معيار صدقه أو كذبه هي التجربة، ومثال ذلك:"مياه البحر مالحة"[2].

نستنتج من التحليل السابق، بأن الحكم إما متولد من العقل وحده، كما هو الشأن في الحكم التحليلي والحكم القبلي، وإما أنه متولد من التجربة مثل الأحكام البعدية والأحكام التركيبية، ولما كانت المعرفة عند كانط متولدة من مصدرين أساسيين هما: القدرة على تلقي المعطيات الحسية[3]، وهي الحساسية، والعقل الذي هو ملكة التأطير والتنظيم لتلك المعطيات الحسية، فالعلم الرياضي يفترض أحكاما يجتمع فيها العنصر الأولي والتركيبي، أي أنه لا يكون قائما على أساس الحكم التحليلي

([1])أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية،ج2، ترجمة، خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، (ط2)،2001، ص 89.

([2])عبد الله محمد الفلاحي، نقد العقل بين الغزالي وكانط، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان،(ط1)،2003، ص 183.

([3])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وحده ولا باستناده إلى الحكم التركيبي فقط، فهو إن اكتفى بالأحكام الأولية أصبح شأنها شأن الفلسفة الدوغمائية، التي تتخذ من العقل ملكة لإنتاج المعرفة، والبرهنة عليها في الوقت نفسه، ما يؤدي إلى المماحكات، أو ما يسميه كانط بنقائض العقل المحض "Antonomies"، فالعلم الرياضي بحاجة إلى التجربة بجانب صفة الأولية التي يتميز بها، إذ تضمن له التركيب (الإنشاء)، ما يسمح بقيام الأحكام التركيبية القبلية"[1].

1- الأحكام التركيبية القبلية:

إن الدراسة التي تتناول الأحكام المتعلقة بقضايا العلم الرياضي، يسميها كانط "دراسة ترنسندنتالية"، ومثل هذه الدراسة تتناول مسألة كيفية قيام الأحكام التركيبية القبلية، أي كيف يجتمع كل من القبلي والتركيبي، بالرغم من الفرق الموجود بينهما في النوع لا في الدرجة على عكس أصحاب المذاهب العقلية والتجريبية، وحتى نتوقف عند حقيقة هذا الاجتماع، لا بد من تحليل ملكة التلقي (الحساسية)[2].

2- الحساسية:

هي القدرة على تلقي التصورات بالطريقة التي بها نتأثر بالموضوعات الوافدة، وبواسطتها تُعطى لنا الموضوعات، إنها تستقبل الحدوس الحسية الآتية من الخارج، وعندما نحلل الحساسية نجد هناك صورا قبلية تكون بمثابة شروط لتلقي الموضوعات، وهي المكان والزمان، أي الحساسية

([1])يحي هويدي، قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، 1993، ص 175.

([2])جماعة من الأساتذة السوفيات: موجز تاريخ الفلسفة. ت: توفيق سلوم، دار الفارابي، لبنان،(ط1)، 1989، ص 256.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمعزل عن المعطيات[1]، فقضايا الرياضيات تركيبية قبلية لأنها تستند على مقولتي المكان والزمان القبليين، فهما عنصران تركيبيان قبليان للمعرفة، وبهذا يتجاوز كانط كل من العقليين والتجريبيين عندما أكد اجتماع العقل والحس معا، ووجود أحكام تركيبية قبلية[2]؛ أي توجد قضايا غير فارغة (تركيبية) وتحمل ضرورة مطلقة، ومثال ذلك أن (5+7=12)، فالجانب التركيبي هو أن (12) ليست متضمنة في كل من (5) و(7)، لأن النتيجة(12) مبتكرة، والعنصر القبلي هو تلك الضرورة السابقة على التجربة، أي تلك الشمولية والكلية[3]، وهذا بدوره يجعلنا نتساءل عن مفهوم كل من العنصر القبلي والعنصر التركيبي.

3- القبلي- الأولي: الأولية عند كانط تتمثل في الضرورة والكلية، أي ذلك الشمول الذي يتعدى عدد التجارب الممكنة، وكما هو الشأن في المثال السابق (5+7=12)، فالمساواة هنا تبقى دائما بصفة مطلقة، إن العلامة المميزة لكل ما هو قبلي هي إذن الكلية والضرورة، والقبلي يبقى في المكان والزمان، ولا يتغير بتغيرهما، وقضايا الرياضيات صحيحة في الأرض والسماء، ومجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين دائما.

4- التركيبي: يتمثل التركيب في الابتكار والشيء الجديد، والذي لم يكن متضمنا في الموضوع، ومثال ذلك العملية الحسابية (7+5=12)، إن الأمر

([1])محمد هشام: في النظرية الفلسفية للمعرفة، ص 148-149.

([2])جون كوتنغهام، العقلانية ترجمة، محمود منقد الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، (ط1)،1997، ص 98.

([3])Georges Pascal: la Pensée de Kant p 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهام هنا هو الجمع، لأن هذه العملية تجعلني أصعد من تصور عدد ما إلى عدد آخر؛ أي الخروج من مفهوم ذلك العدد إلى مفهوم آخر، وبالتالي أجعل المحمول متميزا عن الموضوع. عرفنا إلى حد الآن المقصود بالقبلي (الأولى) والتركيبي (الإنشائي) في قضايا العلم الرياضي، أي أن الرياضيات ليست قضاياها تحليلية- على نحو ما يرى لايبنتز[1]، وإنما قضاياها تركيبية قبلية، لكن المسألة الأساسية التي يطرحها كانط للمعالجة هي كيفية اجتماع صفة القبلية (الضرورة والكلية) الصادرة عن العقل، وبين صفة التركيب الناتجة عن التجربة، هذا الاجتماع الذي لم يكن مألوفا عند الفلاسفة السابقين أو المعاصرين لكانط، لهذا يريد كانط أن يبيّن أن مسألة الجمع بينهما ليست مستحيلة، بل هي أساس يقين العلم الرياضي وخصوبته[2]، وبعد أن اكتفينا –فيما سبق- بتحليل الأولي والتركيبي، ولم نبيّن بعد كيفية اجتماع القبلي الأولي مع التركيبي البعدي، نتساءل الآن عن كيفية اجتماعهما معا في المعرفة الرياضية.

ثالثا- المعرفة الرياضية

يرى كانط أن المعرفة الرياضية يجب أن يعبر عنها في قضايا تركيبية قبلية، أي تتميز بالشمول والكلية بخلاف القضايا التجريبية البعدية، لأن الكلية والضرورة لا يمكن أن تستمد من التجربة. إن القضايا الرياضية بصحيح العبارة هي دائما أحكام قبلية وليست تجريبية، لأنها مصحوبة

([1])عبد الوهاب جعفر، الفيلسوف كانط والكانطية الجديدة، ص ص 30-33.

([2])محمد عزيزي نظمي سالم، دراسات ومذاهب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، (د.ط)،1988، ص 424.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بضرورة لا يمكن أن نستمدها من التجربة وتركيبية أي موسّعة لمعرفتنا، حيث يضيف المحمول شيئا جديدا لم يكن من قبل متضمنا في الموضوع، ففي العملية الحسابية (7+5=12) يجب تخطي هذين المفهومين (7) و(5) والاستعانة بالحدس المناسب لإحداهما؛ أي سواء أكان المكان بالنسبة للهندسة أو الزمان بالنسبة للحساب، أما بالنسبة إلى الهندسة: كقولنا "الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين"، فالجانب التركيبي (الإنشائي) هو أن القصر ليس شرطا دائما للمستقيم، فقد نجد مستقيما طويلا، وبالتالي (القصر) هنا شيء جديد عن المستقيم، وهو ليس مستمد من مجرد تحليل الموضوع، وإنما يستند إلى الحدس المكاني، "فالحدس –فيما يقول كانط- وحده الذي يجعل التأليف (التركيب) ممكنا[1]، كذلك نحن لا نرى المثلث الحقيقي بأعضائنا الحسية أعني بعيوننا، وإنما نرى المثلث بطريقة تحددها صفات عقولنا، وأن ما نسميه المثلث المنظور في لغتنا العادية هو نتيجة التعاون بين المثلث المرسوم وعقولنا[2]، وهذا يعني أن تصورات العلم الرياضي تكون حاصلة في الذهن قبليا، وهي حاضرة في العيان المجرد (المكان والزمان)، وهو أساس تقدمها، وهذا العيان (المكان، الزمان) هو الذي يكسب الحكم

([1])ايمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص50-51.

([2])فيليب فرانك، الصلة بين العلم والفلسفة، ترجمة، علي علي ناصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (ط1)، 2003، ص 85.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التركيبي صفة الضرورة واليقين والكلية[1]، مما يجعلنا نتساءل: كيف يمكن للعيان القبلي أن يكون عندنا ؟

إن الشيء الذي يجب أن نؤكده هو أن العيان القبلي يتبع دائما وجود الموضوع وحضوره، أي أن هناك تصورات قبلية تسبق الموضوع، وتكون عامة دون أن تضعنا على علاقة مباشرة بالموضوع، مثل تصور الكم، المقدار ...الخ، والعيان القبلي كما حددنا سابقا يتمثل في ذلك الجانب الصوري من الحساسية، بمعزل عن كل ما هو حسي معطى، والجانب الصوري القبلي المتمثل في حدسي المكان والزمان، وهما الحدسان اللذان يكسبان القضايا الرياضية صفتي الكلية واليقين، ومن حيث معارفها وأحكامها[2]، فالهندسة تتخذ المكان المحض أساسا لها، والحساب يتخذ الزمان أساسا لتصورات العدد، مما يدل على أن الرياضيات (الهندسة والحساب) تتفق مسبقا مع المكان والزمان الموضوعيين، وذلك عن طريق تولدها المسبق من المكان والزمان القبليين، وهذا ما يجعل الحقائق الرياضية تنطبق والواقع الموضوعي، لأن الموضوعات توجد دائما في المكان –هذا بالنسبة إلى الهندسة- الذي ليس غريبا عن الذات بل متولد عنها، والشيء نفسه يقال عن الحساب، فترتيب الأعداد متولد عن التعاقب الزمني، ذلك أن:"كل الظاهرات من حيث صورتها تتضمن حدسا في المكان وفي الزمان يؤسسها قبليا، فهي لا يمكن أن ترد في الوعي إلا

([1])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص 33.

([2])يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 221.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بتأليف المتنوع الذي يؤكد تصورات مكان وزمان معينين أعني إلا بتركيب المتجانس وبوعي الوحدة التأليفية لهذا المتنوع (المتجانس)" [1]، ويصبح بذلك المكان الفيزيائي مكانا هندسيا، ذلك أن المكان –كما سبق القول- هو حدس قبلي وأنه صورة الحدوس التجريبية، "فهو صورة الحس الخارجي الذي به يتراكم المتنوع، والزمان الذي بموجبه يتعاقب المتنوع"[2]، وتصبح بذلك الهندسة تتفق والعالم الخارجي "أي أن جميع الموضوعات الخارجية في العالم المحسوس تتفق بالضرورة، وبكل دقة مع قضايا الهندسة"[3]، وهذا بدوره يجعل المعطيات المقدمة للحواس تنطبق على المقولات (les catégories)، وهنا يعطي كانط الدور للمخيلة التي يعمل على ربط الموضوع بالمقولة المناسبة له قبل حصوله؛ أي أنها تعطي للمفاهيم حدسا يتناسب معها[4]، حيث تقوم المخيلة المبدعة[5] بجمع الإحساسات مع حدوس الإدراك تحت صورتي المكان والزمان، وتركيب الحدوس مع الأحكام الصورية، وتنظيم أحكام التجربة، ودفعها لتكون

([1])إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص 128.

([2])إيمانويل كانط: نقد العقل المحض، ص 256.

([3])إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص 41.

([4])يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 228.

([5])يفرق كانط بين المخيلة المبدعة والمخيلة الاسترجاعية، فالأولى هي قدرة وقوة تلقائية تصور الموضوع قبليا دون تصوره في الحدس، بينما الثانية (الاسترجاعية) تقوم على قوانين تجريبية (كقانون التداعي)، وهي تنتمي إلى السيكولوجية متمثلة في التذكر، نقلا عن: إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 228.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أحكام كلية[1]، وبهذا يحدث التركيب بين المقولات -بوصفها معان محضة- ومعطيات الإدراك الحسي، مما يسمح بالتقاء التجربة بالعقل مسبقا، فتُعرض مفاهيم العقل بشكل مباشر في الحدس الخالص ليتمكن من تأليف (إنشاء) قضايا تركيبية قبلية[2]، فالأشياء والإدراكات الحسية قائمة كلها على مقولتي المكان والزمان: لأن معنى أن يكون الشيء شيئا، معناه أن يكون خاضعا لمقولات الفهم وهذا ما يؤلف الواقع الموضوعي[3]، وبالتالي فالمكان والزمان هما العيان القبلي الكفيل وحده بتوفير العنصر القبلي (الأولية والضرورة) للقضايا الرياضية، ويستحيل بدونهما أن تخطو الرياضيات خطوة إلى الأمام إلا إذا اجتمع القبلي والتركيبي[4]، وإذا لم يكن ذلك كانت المقادير الرياضية تجريبية وكانت قضاياها نسبية وانهارت الرياضيات النظرية، ما يؤكد مدى ارتباط نظرية كانط في المكان والزمان بنظريته في الأحكام التركيبية القبلية التي تسمح ببناء وتأليف مفاهيم رياضية.

1- تأليف (بناء) المفاهيم الرياضية

يظهر نجاح العقل بصورة واضحة في المعرفة الرياضية، فهو لا يستند إلى التجربة وهذا يعني أن الرياضيات تقوم أساسا على العقل، إلا أنه ينبغي -

(1)رمضان الصباغ، كانط ونقد الجميل، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، (د.ط)،2002، ص 07.

(2) برتران سان سرنان، العقل في القرن العشرين، ت: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، (د.ط)، 2000، ص 22.

(3) زكي نجيب محمود، الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت لبنان، (د.ط) ،(د.ت)، ص 335 .

(4) عبد الرحمن بدوي، الأخلاق عند كنت، وكالة المطبوعات، الكويت، (ط2)،1979، ص 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما يؤكد كانط- أن نميز بين المعرفة الفلسفية والمعرفة الرياضية[1] حتى نقف عند حقيقة المفاهيم الرياضية وكيفية بنائها، ذلك أن المعرفة الرياضية نكتسبها عن طريق تأليف تصورات، وكانط هنا يعني بالتصورات، تصورات الأشكال الهندسية والأعداد[2]، "فتأليف (بناء) مفهوم وعرضه في حدس يتناسب معه قبليا"، ونحن نعلم جيدا حاجاتنا إلى حدوس محضة (المكان والزمان) حتى نجعل من الموضوع –الشكل الهندسي مثلا- الذي هو موضوع مفرد (جزئي) تصورا كليا وضروريا بفعل حدس المكان، فبناء مثلث –مثلا- يفترض أن نتصور كيف يتناسب هذا الموضوع بشكل قبلي مع الحدس المحض، وهذا لا يتم إلا عن طريق المخيلة[3] -كما بينا سابقا- التي تقدم رسوما تخطيطية للمقولات، هي طرائق كلية لتصور المقولات على نحو حسي، وهذا انطلاقا من صورتي المكان والزمان، لأن كل مقولة لها رسم يدل عليها، فيكون رسم الكمية بحكم أن جميع الظواهر تحدث وتتعاقب في الزمان وتصورنا للتعاقب، يفترض أن هناك آنات ووحدات تضاف بعضها لبعض لتشكل العدد[4]، وهذا الربط القبلي بين الفهم والحساسية هو من فعل المخيلة المبدعة (المنتجة)، وهنا تلعب نظرية كانط -في تخطيط (schematisme) مقولات الفهم- دورا كبيرا في تصوير المفاهيم الخالصة على هيئة رسوم

(1) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 228.

(2)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 348.

(3)محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، ص 89.

(4)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 348.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تخطيطية (سكيمات)، أو تمثيلها على هيئة أشكال (figures) مما يتيح تهذيب المعطيات الحسية وإدراجها في المقولات[1].

يستبدل الإنشاء الرياضي مجموعة المفاهيم المجردة بمجموعة تصورات متعينة حسيا، وهو استبدال مشروع بحكم التطابق الكلي بين العنصر القبلي والتركيبي، وبحكم بين العيان المجرد والواقع الخارجي، وباعتبار المكان الهندسي مطابق للمكان الواقعي[2]، فالبعد يمثل انطباق هذه الحقائق القبلية (تصورات المكان القبلي) على المكان الموضوعي الخارجي، لأن الهندسة تدرس المكان القبلي، ولأننا إذا تصورنا أنها تدرس المكان الموضوعي فلا يمكن تبرير قيامها؛ لأن البعدي-التجريبي لا يمكن أن يكون مصدرا لليقين، فالتأليف إذن يراعي دائما القبلي (الأولي) والتجريبي معا، ومثال ذلك: أن عالم الهندسة لكي يتحقق من مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين -بالرغم من أنه يعلم ذلك مسبقا- يلجأ إلى التجربة، حيث يقوم العالم بمد أحد أضلاع المثلث فيحصل على زاويتين متجاورتين مجموعهما يساوي قائمتين ثم يقسم الزاوية الخارجية برسم خط موازي للضلع المقابل، وبفضل سلسلة من الاستدلالات يصل إلى خواص المثلث، فحسب كانط ما قام به العالم على الورقة ليس إلا توضيحا وتسهيلا، ولكن يمكنه أن يفعل ذلك في الخيال دون حاجة إلى ورقة وقلم، فنحن في الخيال لا نصل إلى حقائق رياضية (هندسية)، وإنما

([1])جماعة من الأساتذة السوفيات، موجز تاريخ الفلسفة، ص 256.

([2])حمادي بن جاء الله، العلم في الفلسفة، ص 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نتوصل بشكل قبلي إلى خواص المكان الذي يجعل التأليف أمرا ممكننا في الهندسة[1]، وهذا يعني أن الموضوعات الرياضية كالأشكال الهندسية تعطى سلفا في الحدس القبلي دون مساعدة تجريبية، فالشكل المخروطي يمكن أن يكون موضوع حدس محض مع قطع الصلة بتحققه التجريبي، وهو الأمر الذي يميز المعرفة الرياضية عن المعرفة الفلسفية، فالفيلسوف - مثلا- لو أخذ مفهوم المثلث، وحاول أن يستخرج شيئا جديدا من مجرد شكل محصور بين ثلاثة خطوط، فإنه لا ينجح في ذلك أبدا، لأنه لا يلجأ إلى الحدس القبلي الذي يساعد على تحقق الموضوعات واقعيا، في حين أن الهندسي -كما رأينا في المثال السابق- لو أخذ هذه المسألة لبدأ فورا في بناء المثلث مستمرا في ذلك ومستعينا بالحدس الذي يوجهه دائما[2].

إن المعرفة الرياضية تختلف عن جميع المعارف الأولية الأخرى، فهي لا تنطلق من تصورات محضة بل من بناء التصورات، وهذا البناء (التأليف) يحدث مسبقا في الحدس القبلي (المكان والزمان)، ثم يعود فينطبق هذا الحدس القبلي على الحدس التجريبي فيصبح المكان القبلي مطابقا في المكان الواقعي، وهو أساس يقين القضايا الرياضية، بالإضافة إلى أنها تركيبية بسبب هذا التطابق[3]، والحقيقة أن هذا التميز الذي تنفرد به الرياضيات عن الفلسفة مردّه إلى أن المنهج الذي يتبعه الرياضي يختلف عن المنهج الذي يتبعه الفيلسوف.

([1])محمود فهمي زيدان، كنط وفلسفته النظرية، ص 90.

([2])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 349.

([3])عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، (د.ط)، 1989، ص 112.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- منهج العلم الرياضي

تختلف المعرفة الرياضية عن المعرفة الفلسفية من حيث التأليف (البناء)، وهذا راجع إلى اختلافهما في استخدام العقل، وبالرغم من أن كلا المعرفتين تقومان على العقل إلا أن الرياضيات سرعان ما تعود لترتبط بالحدس المكاني والزماني[1]، في حين أن العقل في الفلسفة يكون ضمن مؤثرات الانفعال الوثوقي الهادئ وانسياقه لإغراءات النماذج الناجحة، ولاسيما نموذج العلوم الرياضية التي تمدنا بأسطع الأمثلة على ما للعقل من إمكانية التوسع التلقائي في المعرفة دون الاستعانة بالتجربة، وهذا التوفيق من شأنه أن يغرينا بتطبيق المنهج الرياضي على كل الموضوعات النظرية، وكأنما هي قابلة للتشريع الكوني، ذلك أن الفوز الكبير الذي يحصل عليه العقل في الرياضيات يحمل الفلسفة (الميتافيزيقا) بشكل طبيعي على الاعتقاد أن المنهج الذي يستعمله هذا العلم يمكن أن ينجح أيضا خارج مجال المقادير[2]، فالعقل هنا يتجاوز محك التجربة، "حيث الأرض غير ثابتة -على حد تعبير كانط- والمياه لا تصلح للإبحار (instabilis telles innabilis unda)، ولأنه لا يمكن تطبيق المنهج الرياضي على المشكلات الفلسفية، ذلك أن تطبيق المنهج الرياضي في هذا النوع من المعارف لا يمكن أن يمدنا بأي نفع، وأن الهندسة والفلسفة شيئان مختلفان، وأن طرائق الواحدة لا يمكن أن تقلد قط في الأخرى[3]، وهذا

([1])عبد الرحمن بدوي، الأخلاق عند كنت، ص 12.

([2])حمادي بن جاء الله، العلم في الفلسفة، ص 159.

([3])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 353.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في حد ذاته نقد لأولئك الذين أرادوا تطبيق المنهج الرياضي على المشكلات الفلسفية ونقصد بالتحديد "ديكارت" وأتباع مدرسته العقلية، الذي أراد توحيد المعرفة وحدة منهجية (على مستوى المنهج) [1]، إذ أن الفلسفة في نظرهم علم يعادل يقينية علم الهندسة إن لم يزد عليها، وديكارت نفسه يؤكد مطابقة البحث الفلسفي للبحث الرياضي[2].

إن مسألة الرد الماهوي لكل من طبيعة المعرفة الفلسفية والمعرفة الرياضية إلى طبيعة واحدة أمر مرفوض من وجهة نظر كانط، أي أن هناك اختلافا ماهويا بين الفلسفة والرياضيات، والاختلاف يرتبط تحديدا بالمنهج الذي يكون دوغمائيا في الفلسفة، وينتهي بها إلى الريبية، في حين يرتبط في الرياضيات بالتعريفات والمسلمات والبديهيات، فهذه الخطوات لا يمكن للفلسفة أن تتبعها، ذلك أن:"الهندسي بإتباعه منهجه في الفلسفة لن يبني سوى تصور من ورق، وأن الفلسفة بتطبيقها منهجها في ميدان الرياضيات لا يمكن أن تفعل سوى الهذر"[3].

إن التميز بين الفلسفة والرياضيات لا يتم من حيث المنطلق، فمن حيث المصدر فهو واحد؛ أي المنطلق العقلي إلا أن الممارسة النظرية الرياضية تستند إلى تركيب المفاهيم، أي سرعان ما تستند إلى الحدس القبلي (المكان والزمان)، بينما الممارسة النظرية الفلسفية تستند إلى تحليل

([1])جنفياف رودليس لويس، ديكارت والعقلانية، ترجمة، عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، باريس، (ط3)، 1982، ص 27.

([2])عبد الله إبرهيم، المركزية الغربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، (ط2) 2003، ص

([3])إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص ص 353-354.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفاهيم، إن الأولى تنشئ موضوعها والثانية تتلقاه، باعتبار أن الموضوع يكون منشأ إذا كان وجوده مترتبا عن تعريفه، وهذا يعكس حقيقة البناء (التأليف) الرياضي، بينما يكون الموضوع معطى إذا كان وجوده سابقا عن تعريفه، إذن الرياضي يبني المفاهيم استنادا إلى العيان القبلي (المكان والزمان)، في حين أن الفيلسوف يفرض مسبقا مفاهيم وتصورات[1]، وهكذا يختلف العلم الرياضي عن الفلسفة انطلاقا من الخطوات التي يتبعها العالم الرياضي وهي:

أ-التعريفات: التعريف هو العرض المفصل للمفهوم عرضا أصليا، حيث تكون مميزات المفهوم كافية، فلا يشتق التعريف من التجربة ولا من الفهم، وإنما هو إعلان للمشروع أكثر مما هو تعريف للموضوع، والمفهوم يتولد من مجرد التعريف ولا يكون سابقا عليه، كما هو الشأن في المعرفة الفلسفية التي تفرض مسبقا مفاهيم (الجوهر، العلية، الحق...الخ)، ونفهم من هذا الاختلاف أنه لا يبقى لنا سوى تلك المفاهيم التي هي ممكنة للتأليف (البناء) قبليا في حدس المكان والزمان القبليين، لأن الموضوع الذي نفكر فيه هو أولي في العيان القبلي، وبالتالي نعرفه، وفرق كبير بين الشيء الذي نعرفه والشيء الذي نفكر فيه[2]، إن الرياضي ينشئ المخروط بأن يتصور تجربة مثلث يدور حول أحد أضلاعه، وكذلك الزمان معطى قبل تعريفه، ونحن نتلقاه بادئ الأمر في ضرب من

(1)حمادي بن جاء الله، العلم في الفلسفة،، ص172.

(2)إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 355.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإحساس المباشر، أو الحدس الغامض أو في ضرب في ضروب المعرفة، وعلى عكس الفلسفة التي تستوجب أن يحلل الفيلسوف محتواها ويميز عناصرها ويدقق دلالاتها، ففي الحالة الأولى لا همّ للفكر إلا إبداعه الذاتي الذي يقوم منه مقام مبدأ التعقل والوجود معا، وفي الحالة الثانية حيث يتعلق الأمر بالمعطيات المستقلة بوجودها، فإن الفكر يتصل بشيء خارج عنه ولا يفكر فيه إلا عن طريق التحليل[1].

إن ما ينتج عن ذلك ما يلي:

1- في الفلسفة لا يمكن أن نبدأ بالتعريفات، لأننا لا نستطيع أن نعرف المفاهيم المعطاة لنا عن طريق ملكة الفهم، وإنما عن طريق الحدس المحض وحده، فالتعريف في الرياضيات ينتمي إلى (esse) [2]، وفي الفلسفة ينتمي إلى (meliusesse)[3].

2- لا يمكن للتعريفات الرياضية أن تخطئ -حسب كانط- لأن التعريف يعطي المفهوم، وهذا الأخير يتضمن بالضبط ما يريد التعريف أن يثبته لنا.

ب-المسلمات: هي المبادئ التركيبية القبلية التي ينتجها الحدس القبلي (المكان والزمان)، ولها استعدادا قبلي لكي تحصل وتحتوي الظاهرات بالفعل حتى تصبح تركيبة قبلية، وهذا عكس الفلسفة التي لا تستطيع أن تؤلف المسلمات لأنها تفتقر إلى عنصر التركيب وكونها معرفة تحليلية، بينما

([1])حمادي بن جاء الله، العلم في الفلسفة، ص 173.

([2])ما هو كائن.

([3])ما ينبغي أن يكون.

إيمانويل كانط، نقد العقل المحض، ص 356.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرياضيات تستطيع ذلك عن طريق بناء المفهوم قبليا في صورة العيان القبلي، ومثال ذلك "أن ثلاث نقاط توجد دائما في السطح"، إننا هنا نستطيع تصور وجود ثلاث نقاط في سطح بشكل قبلي تماما، وهذا ما قصدناه بقولنا "الاستعداد بالقوة" لكي تحصل فيما بعد على الوجود بالفعل، أي تطابقها مع التجربة من خلال الرسومات والأشكال.

ج-البديهيات: لا يمكن للتجربة أن تزودنا بالأدلة اليقينية (بديهيات)، لأن الحكم المستمد من التجربة يكون عرضيا لا يتميز باليقين والكلية، كذلك لا يمكن للأدلة اليقينية أن تصدر عن صور قبلية محضة، لأن هذا النوع الأخير من الأدلة يكون عرضة للتناقضات نتيجة افتقاره لعنصر التركيب الذي تحتكم إليه، إذن يبقى هناك مجال واحد هو الحدس القبلي الذي يكون منبعا للبديهيات، من حيث هو مرتبط بالرياضيات في قضاياها التركيبية القبلية، أي أن الرياضيات دائما تفحص الكلي المجرد في الحدس المفرد القبلي[1]، إن الضرورة هنا مرتبطة بالتصور القبلي لذلك العيان المجرد الذي يسمح لنا بأن نسمي قضية ما بديهية من حيث ارتباط محمولها بموضوعها ارتباطا وثيقا[2].

نستنتج مما سبق ذكره، بأن المعرفة الرياضية لها ما يميزها عن المعرفة الفلسفية، وذلك من حيث أحكامها التركيبية القبلية، وإنشائها للمفاهيم الرياضية التي لا تقف عند مجرد تحليلها كما هو الشأن في المعرفة

([1])إيمانويل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ص09.

([2])حمادي بن جاء الله: العلم في الفلسفة، ص 168.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفلسفية، ما يجعل منهج العلم الرياضي يختلف عن منهج الفلسفة، وبالتالي ضرورة التفرقة بين المعرفتين حتى نبرّر مشروعية قيام العلم الرياضي[1].

إن تحليلا مثل هذا يفضي بنا دائما إلى التمييز بين المعرفة الرياضية والمعرفة الفلسفية، وكانط يجد سندا قويا في النظرية العلمية آنذاك، من هندسة إقليدية وفيزياء نيوتونية، فحركية الفلسفة تتأثر بحركية العلم، ولما كان العلم الرياضي قد عرف تطورا خلال أوائل القرن التاسع عشر فإن تطورا معينا سوف يمس التصورات الفلسفية، بحكم أن الخطاب العلمي يفرز دائما خطابا فلسفيا والعكس صحيح؛ أي أن هناك علاقة ديالكتيكية بين العلم والفلسفة، وبالتالي ضرورة الانتقال من مستوى الحقيقة العلمية إلى مستوى الحقيقة الفلسفية.

الخاتمة:

إن نظرية كانط في المعرفة العلمية وبالتحديد في مجال فلسفة الرياضيات هي محاولة فلسفية لتجاوز الخلاف الفلسفي القائم بين كل من العقليين والتجريبيين حول مصدر المعرفة وطبيعتها، وهذا يعكس مدى صلة نظرية كانط في المعرفة الفلسفية بنظريته في المعرفة العلمية، بدليل أن الحل الكانطي لأسس الرياضيات لما يقتضيه من اجتماع كل من القبلي الأولي والتركيبي البعدي هو الحل نفسه لطبيعة المعرفة من حيث هي مادة وصورة.

([1])عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 103.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن نظرية المعرفة الفلسفية تنطلق من العلم الرياضي، أي من مشروعية قيام هذا العلم لأجل التأسيس لقيام علوم أخرى، فالتحليل الكانطي لمسألة الرياضيات -الذي يجيب عن مشكلة كيف تكون الرياضيات ممكنة؟ يأتي في سياق حله لمشكلة كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة؟ أي ما هي شروط قيام العلم وخصائص قضاياه؟ لكي نختبر على أساسه القضايا الميتافيزيقية، بتعبير آخر فتحليل كانط للعلم الرياضي وسيلة وليس غاية في حد ذاته. فهو وسيلة لفهم وتحليل الميتافيزيقا، بدليل أن تحليله للعلم الرياضي يسبق تحليله للميتافيزيقا استنادا إلى كتابه "نقد العقل المحض" من حيث أسبقية الاستطيقا الترنسندنتالية على الديالكتيك الترنسندنتالي.

فالنتيجة الهامة من التحليل الترنسندنتالي (الشروط القبلية) للعلم الرياضي، وما نتج عنه من أحكام تركيبية قبلية هي مقدمة ضرورية لفهم الميتافيزيقا. والتي أصبح العلم الرياضي يتميز عنها لا في الدرجة وإنما في النوع. وبالتالي استحالة قيام ميتافيزيقا نظرية على أسس علمية. فقيام الميتافيزيقا يجب أن يؤسس لها في مجال آخر ليس هو العقل العلمي النظري، وإنما العقل العملي الأخلاقي. وإذا كان كانط في كتابه "نقد العقل المحض" أجاب عن سؤاله: كيف يكون العلم الرياضي والعلم الطبيعي قائما؟ فإنه لم يجب: كيف تكون الميتافيزيقا ممكنة؟ إلا بتأليف كتاب "نقد العقل العملي" والذي يجيب عن كيفية قيام الميتافيزيقا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com